

جمهور شيبي

سنشرح لك صدرك

واهتز كيانه مع اهتزاز الشاحنة ، واحس بعظامه تصيء بدورها مع العجلات والمحرك والابواب والصناديق واحتكاك الخشب والحديد بالحياة ، وتحاملت الشاحنة على نفسها ببطء وضنك وارتيابك واهتزاز . كانت اشبه بهيكل انسان تصطك عظامه وركبناه .

وانصت استقلال الى السائق . وما هي الا هنيهة حتى نطق ، فظن ان كلماته هي التي تحمل له الامل بالنجاة ، ولكنه تبين انها ليست موجهة اليه بل الى الجند عند السد . وتباطأت الشاحنة وهي تجتاز السد ، كأنما كانت تختال تيبها ودلالا وتتعثر بغبطتها ، ثم انطلقت بسرعة .

وكان سمعه ما زال مشدوداً الى السائق حين قال له مرات : « سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك » . ويقهقه ، ويكاد ان يخن من الضحك . اما استقلال فقد اخذته غيبوبة الفرح .

لقد خرجت به الشاحنة من وجدة ، مركز المناضلين ، منذ اكثر من ساعتين ، قاصدة سد امل على الحدود . وكانت نقطة امل تبعد حوالي مائتي كيلومتر عن وجدة ، ولم يكن

باستطاعة الشاحنة ان تسير باسرع من خمسة وثلاثين كيلومتراً في الساعة ، فنقل السنين لا يساعدها على ان تسرع ، وكانت الطريق التي تسير عليها مشخنة بالجراح العميقة ، وكان عليها في طريقها الى امل ان تمر بثلاث نقاط تفتيش قبل ان تبلغ السد الكبير المبني بالخشب والحديد والجند .

وكان استقلال ممددا في تابوت على ظهر الشاحنة ، وتجم فوقه وفوق التابوت وحوطهما مئات الصناديق الفارغة ، وتحيط به الظلمة من كل جانب . ولكن استقلال لم يفقد حسه بالنور والحياة خارج اطنان الصناديق ، وكان ذهنه مركزاً على عبارة اتفق ان على سماعها من سائق الشاحنة كلما اجتازوا احدى النقاط : « سنشرح لك صدرك » .

كان التابوت بالنسبة له اشبه برحم الموت ، الا انه كان ذروة محاولاته للبقاء حياً خارج بلاده . كان التابوت امله الوحيد الذي ينتقل بواسطته ، لا من الحياة الى الموت ، بل من الحياة على رجاء الحياة .

هو نفسه اختار هذه الوسيلة .

لقد رفض الحرب خارج حدود بلاده بحماية المجاهدين ، فذلك يتطلب وقتاً طويلاً ، ووضعها لا يسمح له باضاعة الوقت . ورفض تزوير جوازه للورور ، فهو يأبى ان يواجه اعداء بلاده على الحدود بوجه مزور ، ففي ذلك خيانة منه لذاته .

وكانت الشاحنة تسير ببطاء ، تحمل وزر الضنك والغبار والبعاد ، انهكها النضال كما انهك سائقها .

وكان يربط استقلال بالسائق هب الجهاد ، فالثان من المناضلين ، ومع هذا كانت حياته رهينة السائق ورهينة الظلمة والنور ورهينة التابوت ورهينة القدر والعدو .

فالى متى يطول انتظاره ويطول اسره ؟

طرح السؤال على نفسه مرات دون جواب ، ودون ان يؤتى الجرأة على رفع الصوت . واجتازت الشاحنة في طريقها نقاط الحراسة ، الاولى والثانية ، بسلام دون ان يشعر استقلال وهو داخل تابوته بأى حرج ؛ فقد اكتفى حراس هاتين النقطتين بالتحية التي ارسلها اليهم سائق الشاحنة ، المنك المجرب ، واكتفوا باجوبته الهادئة على استئنتهم السخيفة : من اين جئت والى اين انت ذاهب وماذا تحمل ؟

لقد اعتاد سائق الشاحنة هذه الاسئلة ، كما اعتاد الوجوه والمظاهر فلم يعد يرهبه شيء ، فصور الجند والاسلحة والحواجز محفورة في دماغه ، وتحدرت عيناه وتحدرت قلبه

بمظاهر العداوة والحقد والبغضاء ؛ في قلبه نما كل شيء وتكاثف ، وتبلد ذهنه على كل غريب ، حتى على القوة والبطش .

وكان عزاء استقلال انه في كل مرة اجتازت الشاحنة احدى النقاط بسلام ، سمع عبارة الامل : « سنشرح لك صدرك » .

وكان يجبس انفاسه داخل التابوت كلما سمع روادع السيارة تشد على العجلات لتوقفها ، او كلما سمع حركة الاحياء خارج عالمه المظلم .

ولازمه الخوف منذ بداية الرحلة فاصبح سيد ذاته ، ولم يكن يملك حرية التصرف ليكشف عن ذاته مظاهر هذا الخوف الذي يحشم فوق صدره باثقل من الموت وباتقل من الظلمة والوهم وباتقل من اطنان الصناديق المملأ بالفراغ .

سجن سبع مرات ، وسيم عذابا رهيبا ، ولم يخف . انتزعه الجند ليلة عرسه من بين ذراعي زوجته ، ولم يخف .

وتعيش بنتاه اليوم مع والدتهما في غارداية ، في منطقة نائية تدعى الميزاب ، دون رجل ؛ وهو يهب نضاله لوطنه ، بعيداً عنهن ، شريداً طريداً ممزقاً ، منذ سبع سنوات .

فلماذا هو الآن ، في هذا اليوم يوم العيد ، في طريق الهرب ، يسعى الى حدود خارج حدود بلاده ، ممدداً على ظهره مثل جيفة باردة ، مثل جثة ؟ لماذا اختار التابوت جواز

مرور ؟ لماذا يهرب هذه المرة من النضال ؟ أخوفاً من الموت يهرب ؟ هل فقد شهية القتل ؟ هل فقد القدرة على تحمل العذاب ؟ تحمل الكي بالكهرباء ، في الاماكن الحساسة من جسده ، وتقبل الغرق في احواض الماء العفن . أفلم تعد احشاؤه تتسع للماء تملأها به

الخراطيم حتى يفقد وعيه ، ثم تدوسه الارجل حتى يخرج الماء منه ؟ أفلم يعد في جسده مكان تنهشه الكلاب ؟

حفر قبره بيديه مرات وهو في السجن ، وكان الحقد يملأ قلبه على عدوه ، ويغذي فيه نقمة عارمة ضده . حقهه هذا هو الذي دفعه للهرب من السجن حتى ينتقم ، فما باله

قد سجن نفسه في تابوت ، وتخلي عن رفاقه في النضال ؟ أفلم يعد لوطنه قيمة في ذاته ؟

وكان يعزي نفسه بانه سيخوض معركة بلاده خارج حدود بلاده ، سيحطم التابوت عنه ويعود الى نضاله ، فمعركة بلاده بحاجة الى مساندة من الخارج ايضاً . سيحمل نضال

بلاده الى ضمير العالم يهزه ، كما هزه بقوة السلاح داخل بلاده . منذ خمس دقائق قال له سائق الشاحنة : انتبه ، لم تعد تفصلنا عن حاجز امل سوى

عشرة كيلومترات . واعداد عليه التعليقات : لا تتحرك ، اخفت انفاك .
منذ تلك اللحظة وقلبه يسرع بالخفقان ، والاستفهامات تتراقص في ذهنه : هل ينزل
الجنود الصناديق كلها الى الارض ويفتشونها ويحظون به ؟

لقد اخبره سائق الشاحنة ان بعض حراس الحاجز درجوا خلال سنوات النضال على
تفتيشه تفتيشاً دقيقاً كلما دخل او خرج ، وكانوا يجبرونه على انزال حمولته وفتح الصناديق
امامهم للتأكد مما في داخل كل منها على حدة . وحرص طوال هذه المدة على استعمال
الصناديق نفسها لعل عيون الحراس تألقها فلا تثير فضولهم في كل مرة ، ولكنه لم يفلح
بردعهم عن اخضاعه للتفتيش الدقيق .

واحس استقلال وهو داخل الثابوت بطعم الخيبة في فمه ، وكادت امعاؤه ان تتمزق
من مرارة الجوع ، وتسمرت عيناه بالثقب الضيق في سقف الثابوت، وتعلق سمعه بالثقبين
الضيقين الجانبيين .

كانت هذه الثغوب كل ما يربطه بالعالم الخارجي .

واستعاد حادثة هربه من السجن منذ اسبوع ، ولماذا هرب . كان يتسنى له ان يشاهد
من سجنه المنتصب فوق تلال حيداب ابناء وطنه يعاركون اعداءهم ، وكان ازيز الرصاص
يناديه هو ورفاقه ويلج عليهم ؛ كان الدم المسفوح يستصرخ العدالة ، واقتدتهم تتمزق .
وها هو الآن يسمع طلقات الرصاص في كل جانب ، ولكنه لا يرى شيئاً .

وقبل ان تصل الشاحنة الى نقطة امل بكيلومتر واحد نبهه السائق وكرر عليه
التعليات . دعاه الى الاستكانة والتمرع يهدوء الاعصاب . ولكن اعصابه فائرة ، وكان
يزعجه صمت الطريق وتغمره انقاس الصحراء بحرارة خانقة .

وكاد ان يغنى عليه حين شعر بالشاحنة تهتز بعنف كأنما اصطدمت بشيء ، ثم
توقفت وسمع صديقه السائق في جنل مع اغراب ادرك من لهجتهم واسئلتهم انهم حرس
نقطة امل ، فحاول حينئذ لمن يحبس انفاسه قدر المستطاع ، وغرق بصمت عميق .

وادرك ان حياته رهن بحركة السائق ، فقد بدا له من لهجة الحراس انهم يصرون على
ان ينزل الصناديق الى الارض لتفتيشها .

وعمد السائق الى الحيلة ، فقال لهم :

« الاتشفقون عليّ بشفاعه هذا اليوم ؟ لقد مضت عليّ ساعات وانا جالس وراء هذا

المقود ؛ ألا ترون اني متقدم في السن ؟ »

ونزل السائق من السيارة الى مكتب رئيس النقطة ، وراح يتوسل اليه ، ثم طلب شربة ماء . وفيما كانت المساومة قائمة بين الاثنين جاء احد الجنود بحربة وراح يدخلها بين الصناديق . ودخلت الحربة في احد الثقوب في التابوت وغرزت في جنب استقلال ، لكن الجندي لم يفتن الى انها اصطدمت بشيء رخو . فعاد وسحبها ليغرزها في مكان آخر . بينما راح استقلال يعاني من الالم دون ان يتمكن من تحسس الجرح ولا التأوه ، ولكنه شعر بالوجع يزداد وبالملوحة تحرقه ، وشعر بالغيوبة تكاد تستبد به .

وسمع استقلال صديقه سائق الشاحنة يقول لرئيس للنقطة بيأس :

« حسناً ، كما تشاء . سأنزل لك الصناديق » .

وشعر به يقفز فوق الصناديق ويباشر بانزالها ، فادرك ان ساعته دنت ، وانه قد يقتل هو والسائق في هذه الارض النائية ، زوراً ودون محاكمة او شفاعة او جدوى ، سيقتلان بشكل تافه .

واحس لاول مرة بضعفه وخوره ، فراح يصلي . كعم كعما للصلاة ، ولم يكن يعرف ماذا يقول . فراح يهذي في طلب الخلاص ، ولفه العرق البارد ، فبلل ثيابه الرقيقة التي كان يلبسها وطفا على وجهه فانسح على رقبته واذنيه وعينه وشفتيه فاغرقتها بالملوحة . ولم يكن باستطاعته ان يحرك يديه المسبلتين الى جنبه ليمسح العرق عن عينيه فاغمضهما وعن شفتيه فاطبقهما . كان يتألم ولا يستطيع الصراخ ولا الحراك . حتى انفاسه كان عليه ان يخفها فلا يتنفس بارتياح . واستولى عليه الخزي : صعب عليه ان يموت هكذا ، بكل سهولة وببلاهة .

ولم يعد يشعر بشيء .

بعد مدة (أكانت لحظات ام دقائق ام دامت فترة اطول ؟ لم يكن يدري) ، احس بكيان الشاحنة يهتز من جديد وبعظامه تصيء بدورها مع العجلات والمحرك والابواب والصناديق واحتكاك الخشب والحديد بالحياة . أكانت تنقل الشاحنة الى داخل النقطة ، او تعاد الى المدينة ، او في طريقها الى النجاة ؟ كان احساسه بالغلبة يصارع الوهن ، وكان يفقد سيطرته على وعيه وادراكه واعصابه ، وبطنه يكاد ان ينفزر بالبول .

كان استقلال داخل التابوت يفقد وعيه للاشياء والاصوات ، الا لصوت كان يجيء سمعه مكررا ، ولم يعرف أيحيته بحق او في حلم :

« سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك . سنشرح لك صدرك » .